الظمأ

حتى الهواء كف عن المرور بين الشواهد الرخامية ، لم يبق الا صوت الحبيب معلقا في الفراغ ، يعطر الأفق ، ينفذ الى رئتيها ، او اوردة قلبها ، كما ينفذ خيط رفيع من ثقب ابرة ..

امي .. عطشان .. اسقيني ..

لن تنسى مذاق حسه ابدا ، ثقل يضغط كتفيها ، تنظره واقفا بكامل تيابه ، لحظة مجيئه في الاجازات ، اندفاق الدفء الى صالة البيت ، برؤيته تتبدد وحدتها ، خلاصة ما مضى وما تبقى من عمرها، الان تعرف ان زملاءه كذبوا عليها ، تتيه نظراتها في اشواك الصبار، الاسماء المنقوشة بحروف سوداء ، تواريخ الرحيل عن العالم ، الان.. هذه اللحظة ، تماما ، طلال لم يعد متمددا ، الشهور المنقضية شق انها لو كشفت عنه ، تلقاه على حاله ، في حدقتي عينيه اخر نظرة، اما الدماء فحارة طرية ، بهجة اطفال لم تجف .. من فوق الجدار تناولت الابريق ، تدفع عنه الظمأ ، حراشيف السمك التي تغطي الحلق والفم ، قال زملاؤه انه رحل مرتويا بلا اوجاع ، رمت قليلا من الماء فوق التراب تطهر فم الابريق ، الصقت اذنها بسطح الرخام البارد، الشتاء يكثف البرد ، تقف وحيدة في كهف جليد ، اصغت، اصغت ، تسمع نبض الروح الواهن ، ستة شهور يؤلمه الظمأ ولم ينطق الا اليوم ، الحبيب لم يشأ ازعاجها ، ناداها بحس خفيض فيه خجل واعتذار ، عيناه تزحمان المكان ، ينظر اليها من طوب السور الاحمر، عند الركن الايمن ، تراه طفلا يحبو ، قالب سكر ، ثمرة برتقال ، يرتدي البنطلون القصير ، تمسح الخيط اللامع الواصل بين فمحتي انفه وشفتيه ، تحت شجرة الصبار الخضراء المؤلمة لعصب النظر ، رأته جالسا في شرفة البيت والوقت عصر ، حوله هالة من غمام شتوي فيه اسرار ، يقول انه شرب الشاي في اماكن كثيرة ، لكن كوب الشاي الثقيل حلو المذاق ، الذي يشربه من يديها لم يذق مثله ابدا ، ينام دائما وقت العصر ، اذا لم يغف ولو نصف ساعة حتى ، تحرقه عيناه الليل بطوله ، الان ، تسمع وقع اقدامه ، يملأ المكان ، لو رحلت الى طريق خال او مزدحم تلقاه ، في محطات السفر، قوارب النزهة ، عند الجسور ، حديثها اليه قد وصله ، سمعه ، ياه .. وكيف تشك في هذا ، عمره هنا ، طفلا رأته ، شابا ضاحكا، باكيا عندما امتدت يدها عليه مرة واحدة ، هل تصدق انها ضربته ذات يوم ؟؟ رأته في الثياب العسكرية ، يدفق دم الشباب ، ثم صندوقا ملفوفا بعلم ينزل بطيئا في هواء مثقل بنوبة رجوع فادحة ، منبعثة من بروجي نحاسي ، الان تسمعه لاهثا .. امالت الابريق .. اشرب ياخويا .. اشرب يا حبيبي .. اشرب يا رجلي ..

يبكي الابريق ، تسقي الفجوات المستطيلة الصغيرة بين الواح الرخام ، ينام ، اذ يسمع خطوانها في عمق الليالي ، تعبر الصالة الى المطبخ ، يصيح ..

اشرب .. اشرب يا ماما والنبي ..

لماذا قالوا انه لم يظمأ ابدا ، في الفراغ العتيم يومها ، في خفق البيارق السوداء ، في النواح كادت تهلك ، احتضنتهم واحدا ، واحدا ، احمد ، ابراهيم ، حسن صاحبه زميل المدرسة والطريق ، سهر الليالي والتدريب ، الكلية ، سألتهم الا يتركوها ، الا يدعوها وحيدة ، ما تخافه ، ترهبه ، نزول الليل عليها ، خطو ساعاته فوق روحها ، تعلم ، تعي ، ان العالم كله خلا من طلال ، صحيح يا حسن لم تمض روحه معذبة ؟؟ هل ذكرني ؟؟ متى ، متى بالضبط ؟؟ اخر كلمة قالها ركن العمر ، نعريشة البيت ، سند الايام القاسية ، يهمها جدا ان تعرف اخر كلمة ، كيف نطقها ؟؟ واذا لم ينطق لسانه فما نوعية الصوت الذي صدر منه ؟؟ ما الذي كانت تفعله ؟؟ تفكر فيه وقت انفجار الهلاك حوله ؟؟ قال حسن ان لسانه لم ينطق الا بذكرها هي ، ناحت ، مضغت الحجارة ، عمرها تمهيد طويل لهذه اللحظة ، غير انها في اول ليالي الوحشة ، جاء في اغنية قديمة ترامت اليها من بعيد تنعي احبابا غابوا ، في اذنيها نداءات رجال يعبرون الجسر، يركبون جمالا محملة بالبوص والحطب ، غرباء الدار ، يرحلون من نجع الى نجع ، غناؤهم ابكاها طفلة ، تبكي ، دمعها يفيض منه النهر ، تنوء بحمله السماء ، يزحم بلدها في حشا الصعيد ، يقوض اساس بيوتها ، طلال سافر اليها مرات ، يرى جده ، الاقارب ، خاله يجيء كل عيد اضحى ، غروب الوفقة ينتظره طلال ، يقول انه يشم رائحة الخبيز في الافران ، القمح في الصوامع ، يسمع وابور الطحين ساعة الصباح لحظة رؤيته خاله ، ترقبهما فرحة ، لا بد ان يسافر طلال، يمشي معه في البلدة ، تضرب صدرها بيدها ..

يحسدوه يا حماد يا خويا ..

يلوح بيده المطلة من كم جلبابه الواسع ، الناس لن تسعها الفرحة عندما تراه ، ثم يقول بعد صمت يوشى فيه الموقد ..

اربى لك رابحة واجوزها لك .. اجدعن عه ..

يا ريت يا خالي ..

يصفر الهواء ، لا بد انه يرى نفس الصور ، ما تراه هي يبدو

له ، عيناها بصره في الدنيا ، شظايا الايام البعيدة يدهشها الان قطار وحشي ، يلوي القضبان ، يغرق في الترع العميقة ، بعد ذهاب اصحابه والنساء ، والاقارب ، ليس معقولا ان يقضوا بقية العمر معها ، جاءها طلال بدرا منيرا ، وريحا طيبة ، وغناء شجيا ، وشمسا تسعى بالدفء الى عمرها ، في عينيه لون الطفولة ، نادته ، زارها في الغربة ، قهوتها الصباحية ، الماء الذي يذهب بظمأها ، البرودة المخففة عنها الام القيظ ، لم يقل لها طلال كفي عن البكاء ، لم يفه حرفا ، في هذه الليلة ترامى اليها عويل قطار بعيد ، ربما دیزل يعبر الخلاء خارج المدينة ، انقبض قلبها ، نادت امرأة على ابنها من شرفة علوية ، ادركت انها وحيدة حتى القرار ، بلا طلال .. صاحت..

انا ضايقتك في حاجة عشان تسيبني بدري .. بعد العمر دا كله تروح مني ..

لو تمشي وراء احمد ، حسن ، زميليه ، تبحث عن الذي شيع الهلاك الى نجم الصباح وحيدها ، شخص بعينه لا بديل ، تذيقه ما رآه رحيق عمرها ، اتسعت ابتسامة طلال، يتمنى لو يمد يده، تقدمت منه ، تقدمت ، لكن المسافة كما هي ، جدران البيت وحوش تزحف اليها ثلجية النظرات ، كان يغيب عنها شهرا ثم يجيء اربعة ايام اجازة ولا تفجعها الوحدة ، تعرف انه يضحك في مكان ما ، يرقد، يشرب شايا ، يأكل رغيفا وشريحة جبن ، لكنه في لحظة بعينها ، بعد ايام محددة تحسبها على اصابعها اثناء شربها القهوة او عندما تطبق الوسادة على رأسها ، لحظات ما قبل نومها ، حتى يجيء الاحد او الاربعاء ، السبت ، يطرق الباب، عندما طلع صباح اول يوم لا يتنفس فيه طلال الهواء ، خرجت بمفردها ، تنوء بحمل البيوت ، تمضغ الواح الزجاج واسفلت الطريق ، لا تصدق ان شيئا جرى ، يومها عرفت عم اسماعيل الحارس ، وامرأته ، القت السلام على طلال ، قعدت الى جوار الشاهد الرخامي الجديد ، في اليوم الثالث تساءلت مفزوعة ، كيف نسيت الشاي ؟؟ جاءت بموقد الكحول ، في نفس الميعاد توفده ، نملأ الاكواب ، السكر تذيبه بتأن ، تسقي عم اسماعيل ، امرأته وعياله، تروي شاهد الرخام ، احيانا تقعد امرأة عم اسماعيل ، تحكي لها ، تسلي وحدتها ، اذ نمضي الى السوق ، تولي وجهها ناحية طلال ، تسأله عن حاله ، تحكي له كل ما جرى خلال يوم مضى ، سفر حسن افندي علي الى اسيوط ، روحية جارتهم وتليفونها الجديد الذي ادخلته ، وزعت نمرته على الجيران كلهم ، تتحدث فيه بصوت عال قرب النافذة متباهية ، مجيء نجمة شقيقة صباها من البلدة ثم سفرها بعد يومين ، خروج سكان البيت مع بعضهم الى السينما يوم الخميس ، مدرس جديد يتردد على مديحة ابنة ام صبري ، قبل نطقها اسم ((مديحة)) يتسلل اليها تردد ، تخاف ان تذكره بها ، في الشهور الاخيرة لاحظت انه يسألها كثيرا عن مديحة ، هل تراها اثناء غيابه ؟؟ قالت له .. والله مديحة بنت حلال يا طلال ..

سكت ، ضحك ، ام صبري نفسها احست ، قابلتها فوق السلم، سألتها عن صحتها وعن ..

ازاي سي طلال .. ربنا يحرسه ويحرس اخوانه ..

والنبي بييجي اربع ايام بس .. بيفوتوا زي الهوا ..

لو يفضي نفسه كل يوم نص ساعة .. ويذاكر لمديحة انجليزي..

ابدت اشفاقا ولم يغب عنها مقصد ام صبري ، ثمة قلق راودها ، لكنها انتظرته عند عودته ، لحظة تغييره ثيابه ، بمرح دفعته في صدره ..

عندي اخبار حلوة .. تفرحك ..

اصفى ، لم يفتها تسلل الدم الى وجهه ، ياه .. لا تذكر ما قاله ، نسيت ما قال ، القطار الوحشي يحرق الزهور ، يغرق مياه الشرب بزيت مسموم ، تعرف انه يخجل ، تخاف ان تنقل اليه اخبار مديحة ، ترتجف اذ توشك على ذكرها ، ربما تألم في رقدته ، خاصة، الخبر الذي سمعته من امرأة عبد الهادي بائع البيبسي كولا عند الناصية .. مادريتيش يا ختي .. شعراوي اللي بيشتغل في الجمرك اتكلم على مديحة ..

سهمت ، تجرعت دواء مرا ..

واهلها قالوا ايه ؟؟

ياختي .. حد لاقى يجوز بنانه اليومين دول ؟؟

جاءت اليه ، النهار كله تبكي ، ربما سأل عن سر حرقتها ، تخاف مواجهته ، ترى في عينيه ارتباكا عند ذكر مديحة ، آماله فيها، هي تحبها ، تود لو رأتها باستمرار ، الم يذكرها طلال آلاف المرات ، لكن .. هل يخفى عليه شيء ؟؟

في قتامة العصر ، وقت اعداد الشاي ، همست للخلاء ..

ماعلهش يا طلال .. انت احسن منها ..

سمعته يقول مرتجفا ..

وذنبها ايه ياماما .. ربنا يسهل لها ..

سكت ثم عاد صوته هامسا ، متعثرا ، طفلا يحبو

مافيش اي حاجة بيني وبينها .. انا حتى ما خرجتش معاها مرة .. بلقاها مش عارفاني ..

عاطت بصوت انتزع امرأة عم اسماعيل ، جاءت ، احتضنتها، وعندما اخبرتها ناحت امرأة عم اسماعيل نفسها ، الان .. تغرق السماء في لون هو خلاصة الاحزان ، فرغ الابريق من الماء ، تسأل الفضاء والجدران والاشجار والنبات النامي في الفناء ، كيف لم تعرف ظمأه الا اليوم ؟؟ كيف ؟؟ شهور كاملة لم تسقه جرعة ، صحيح انها تجيء بالشاي والافطار وطعام الغذاء ، خاصة السمك الذي يحبه، توزعه على عم اسماعيل ، وقراء فاينباي ، لكنها لم تسمعه الا اليوم، آه يا عذاب السنين ، يقوم طلال كل ليلة ، يخرج الى الطريق ، دماؤه لم تجف ، روحه ظمأى ، يسأل المارة ، عابري الطريق جرعة ماء فيخاف منه الرجال ، يفزع الاطفال ، تسقط الحامل جنينها ، لا يقدم له مخلوق جرعه ، يزعق وتنام هي ، كيف تفارقه عند غروب كل يوم ولا تمضي الليل بجواره ؟؟ طلال شرايين كبدها ، ظامىء ، طلال نجم بعيد خافت يرتعش بردا في سماء مهجورة ، لا شمس فيها ، طلال نهار شتوي عمره قصير ، فرحة طفل لم تتم ، ضيا عين انطفأ ، هوى الابريق من يدها ، دارت بين شواهد الرخام، الاسماء وتواريخ الرحيل عن الدنيا ، ابدا لا يؤنس وحدته الا هي ، تبحث عن ابريق مملوء، ابدا لا تلقى ، اطل غلام من البوابة الحديدية ..

والنبي شوية مية يا حبيبي .. شوية مية اخوك عطشان ..

خاف الغلام فاختفى ، خرجت الى الطريق ، الهواء مليء بتراب كالدم الجاف ، طلال حولها ، تسمعه الان ، تشرب صوته الظامىء ، انهار الارض وينابيعها ، شلالاتها ، مساقط المياه لن ترويه الا اذا اندفقت من يديها هي ، تمر امرأة ضاربة ودع ، نادتها ، لم تسمع ، الطريق خال ، الاصوات ولت ، لون السماء يضيع ، امرأة عم اسماعيل ، عم اسماعيل ، لا احد ، كيف ينقضي العمر بسهولة ، كيف ؟؟ تعبر الصفوف الى طلال متعثرة الخطى ، تسمع نبض حنجرته ضعيفا واهيا . آه لو تمطر السماء ، تمد الكفين ، تجمع بهما جرعات تسقي الحبيب ، ان ولت عنه ثانية ، رجفة عين ، فهي هجرة ابدية لا تطيقها ، ظمأ يصرف الجنين في الحشاء ، ان تمضي حتى ترتوي، رقدته ببطنها الشوك طالما يعذبه الظمأ ، مالت .. احتوت الرخام بين يديها طفلا باكيا غريب الابوين ..

القاهرة

جمال الغيطاني